كلود عطية
على طريق المشايا /قصة قصيرة ج1

قالت لي الاعلامية حياة الرهاوي أن الطريق الى كربلاء تضج ذاكرته بآلاف القصص والحكايا فإن أردت أن تخوض هذه التجربة فما عليك إلا أن تنحرف باتجاه اليمين عند العامود 256 على طريق يا حسين (النجف-كربلاء)..

سألت من بعدها ذاتي وأنا المؤمن بفكر الحياة، كيف سيكون اللقاء والحزن يعانق هذه المدينة ومشاهد الندب واللطم والبكاء وارتداء الأسود يكاد يُلامس التراب ويوشّ ّح الغيوم في السماء؟.. لماذا أنا هنا، في عالم مجهول لا أعرفه ولا يعرفني ولا يربطني به إلا ما قرأت وما سمعت من قصص الحداد والألم؟

بدأت رحلتي وعشرات الأسئلة تقتحم رأسي، والعقل تحوّل الى مختبر تفكير وزرع أوهام، ويكاد الشعور بالندم يسيطر على ما تبقى من مشاعر مقتولة في زمن الحرب والأزمات المتراكمة التي كادت أن تحولّني الى عالم الوحدة والانعزال الفكري والنفسي عن العالم.. فمن اللحظة الأولى التي وصلتُ فيها الى مطار بيروت أحمل حقائب السفر الممتلئة بالخوف والندم على مغادرة أفراد عائلتي لعشرة أيام متتالية، كانت الصدمة الأولى بلقاء الآلاف من اللبنانيين والعرب والأجانب من جنسيات مختلفة في صالات المغادرة المتحوّلة الى مظاهرة شعبية حقيقية.. فتحوّلتُ الى عابر سبيل في حقل ألغام من الصراخ والارتطام والتعديات التي فرضتها ظروف الحرب على لبنان..

حطّت الطائرة في مطار بغداد على أنغام صلّوا على محمّد وآل محمد وكأننا في جلسة عاشورائية استباقية، فمعظم القادمين الى العراق هم من الزوار المؤمنين بالعقيدة الحسينية..
استقبلني مسؤول رفيع المستوى في مركز كربلاء للدراسات والبحوث ومن ثم انطلقت مع ضيفين آخرين من جنسيات مختلفة الى كربلاء..

هنا بدأت زيارة الأربعين وأنا أسلك طريق الاستكشاف رغم التعب الجسدي الذي فرضته ظروف السفر من بيروت.. جلستُ في المقعد الأمامي وكأنني أقود سفينة تُبحر في بحر من البشر.. فأنا أشاهد بالعين المجرّدة الالاف من الزائرين وهم في رحلتهم الى كربلاء سيرًا على الاقدام، رأيت الشاب والشيخ الجليل والمرأة والصبية الصغار، رأيت العربي والأجنبي، الأسود والأشقر والأبيض والحنطي، رافعين رايات وأعلام مختلفة ولكنها كلها تعبر عن العشق والتوق لزيارة الامام الحسين عليه السلام،

هو المشهد الأول الذي يصف بالحقيقة هذا العشق، كما عظمة هذه النفوس المؤمنة المطمئنّة الراضية المتحمّلة لكل الصعوبات التي تفرضها المسافات!

سألت السائق، لماذا تحبون الحسين؟ فهذه المواكب الحسينية متعبة للغاية!
أجابني مستغربا: "حبنا للحسين هو ارادة حياة في وجه الموت وارادة حق وعدالة"
ثم التفت وقال لي لماذا تسأل ألست من زوار الحسين؟
نعم لقد أتيت لزيارة الحسين علّني أتعرّف عليه عن قرب فهو عظيم جدا في فكر كل الأصدقاء الذين أخبروني عنه.. ولقد أتيت الى هنا بدعوة من أصدقاء مقرّبين.. أما تفاصيل زيارتي فهي تحت راية العتبة الحسينية المقدسة ومركز كربلاء للدراسات والبحوث..
استغرب السائق قائلا.. هل أنت مسلم سني؟
أجبته، لا أنا مسيحي، ومازحته بأنني من أورثوذكس الشيعة في شمال لبنان..
تغيّرت ملامح السائق وراح يتحلّف لي، بأن أحل ضيفًا في منزله، مع عائلته وأطفاله.. وكلمات عراقية ترجمتها اللبنانية بأن استضافتي كمسيحي شرف عظيم وخدمة حقيقية للامام الحسين.. وهي لغة تقدير واحترام عظيم من سائق متواضع زرعتُ الفرح في وجهه وأنا لا أعلم لماذا؟

يبدو أن الأرواح باتت تتلاقى هنا، فاهتمام السائق بلغ ذروته، لتجده يقف لشراء الماء والطعام، ثم يأتي الماء والطعام من حواجز بشرية تقف الى جانب الطرقات، يقدّمون لك ما تريد، ثم يقدّمون لك الشكر ويصرخون هلا بزوار الحسين.. لا تفارق الابتسامة وجوههم وهم يقدّمون لك الماء والطعام وكأنهم من عالم آخر لا يشبه هذا العالم المادي حيث تحكم لغة المال والسلطة وتدمّر العلاقات الاجتماعية والانسانية.
يبدو أنها البداية لمعرفة طريق الحسين، فبلوغ المعرفة الحقيقية يبدأ بالانجذاب الروحي ولقاء الأرواح يبشّر بالتعلّق والحب.. فأنا هنا، وبصريح العبارة بدأتُ أشارك الجموع التي سَعت إلى إمامها بخطوات الأقدام سيرًا، بلهفة القلب والفكر شوقًا لرؤية المُلهم، أما هذا الشوق فهو بالنسبة لي لم يكن بالفطرة او متوارثا، وهو لا يمتّ لحياتي الاجتماعية والدينية والقومية بصلة، ولكن الآن وأنا أخوض بالفعل تجربة الزيارة الأربعينية بدأت أشعر بارتباط جدلي للعقل مع الروح، فما تراه العين هو الفكرة والحجج والشواهد الكثيرة التي بدأت أختبرها بذاتي.

عند منتصف الليل، وصلتُ الى مقر إقامتي في كربلاء حيث ينظم مؤتمر الاربعين برعاية العتبة الحسينية المقدسة، وبدأت المشاركة في أعمال المؤتمر من حيث اللقاءات اليومية والمقابلات الاعلامية، والتزمت كباحث سوسيولوجي بتقديم مقاربات علمية تحليلية بشكل يومي عن كل الزيارات الميدانية.

ضم المؤتمر عددا كبيرا من الباحثين من كل أنحاء العالم، ولكن وعلى الرغم من الالتزام التام بكل محاور المؤتمر ومنهجيته وبرنامجه، الا أن الزيارات الميدانية التي شاركت فيها مع مركز كربلاء للدراسات والبحوث كانت محور الدخول الى عالم من الأحداث المتداخلة بين الثقافة والعادات والشعائر والطقوس واللقاءات البشرية الكونية التي اختصرت العالم بأسره في مدينة واحدة.. وهنا بدأت مسيرة البحث والتقصي عن ظاهرة لا يمكن تفسيرها بالكتابة ولا بالرواية ولا بقصص الخيال، فنحن أمام لوحة بشرية سوداء ينقش فيها أهل المدينة كل الألوان الإنسانية الأخلاقية العظيمة البيضاء، وهنا تتمرّد الروح وتنطلق في فضاء من الحرية في التعامل العلمي والشخصي مع زيارة الاربعين، فالمشاهدات الميدانية والملاحظة بالمشاركة لا تقيّد بوقت ولا ببرنامج ولا بصور.. فأنا أرى نفسي تائهًا في عالم غريب عجيب لم أشهده من قبل .

لقاءات اعلامية على محطة كربلاء، ولقاءات مسائية ثقافية ألقت الضوء على المزيد من المعرفة والتحليلات الايديولوجية والفكرية والدينية عن الزيارة الاربعينية وشخصية الإمام الحسين برعاية مسؤولي مركز كربلاء للدراسات والبحوث وعلى رأسهم الدكتور الحاج عبد الأمير القرشي ومجموعة من الباحثين والمتخصّصين في الزيارة الأربعينية وتفاصيلها ..

قمنا بزيارة الجامعات والمؤسسات الاجتماعية والرعائية التابعة للعتبة الحسينية المقدّسة والتي تعتبر بمثابة مشروع متكامل للنهضة والتطوير وبناء المجتمع وتقديم صورة مشرّفة عن هذه المدينة الحسينية الكربلائية العظيمة.

أما اللقاء الأبرز بالنسبة لي فهو الذي جمعنا مع المتولي الشرعي للعتبة الحسينية المقدّسة الشيخ عبد المهدي الكربلائي، الذي قدّم لنا مقاربة علمية أخلاقية إنسانية دينية تختصر فكر الامام الحسين بالفعل وليس فقط بالقول، وبكلمات تدخل القلب وتخترق العقل وتشعل النور في أفكارنا الظلامية السابقة لزيارتنا.. لتبعث مع كلمات الشيخ الكربلائي نهضة فكرية روحية ثقافية في أرواحنا وأجسادنا التي عانقت الأرض الكربلائية بأفعال أهلها وكرمهم وتواضعهم، كما عانقت السماء بروحانية الايمان والتقوى والعطاء والبذل والتضحية..

بعد هذا اللقاء، ارتفع منسوب الشغف في روحي للنزول الى الميدان /بعد انتهاء الوقت المحدد لبرنامج المؤتمر/ لمشاركة الناس والاحتكاك بهم، واكتساب المزيد من المعرفة التي رغبت منذ البداية أن أحولها الى قصة صغيرة من قصص حياتي..

في منتصف ليل اليوم الخامس لزيارة الاربعين، خرجت برفقة بعض الاصدقاء من العتبة العباسية المقدّسة الذين حولوا زيارتي الى طريق من النور والحق والجمال، فكانوا أبناء الحسين بأخلاقهم ومودتهم ورعايتهم التامة لكل لحظة من لحظات وجودي في ميدان اختباري البحثي والعلمي والاعلامي لزيارة الاربعين.. وكانوا السند لكي

أعيش تفاصيل الزيارة بحرية مطلقة، وكأنني خرجت معهم لأداء تلك الشعائر التي عانقت مشاعري بلا استئذان.
في طريق المشايا، تذكرت كلام الشيخ الكربلائي، حيث رأيت بالفعل وليس بالقول أن "الناس هنا سواسية"، من مختلف الجنسيات والأعراق والطبقات الاجتماعية، وهم يفترشون أرض كربلاء بحرية مطلقة ولا غطاء الا السماء.. ورحمة الخالق ومحبة أبناء المدينة.. وايمانهم بعقيدة الحسين وسيرته النضالية..

بدأت الرحلة على طول طريق المشي بين مدينتي النجف وكربلاء، وقفنا حيث تنتشر المضائف، وهي منشآت بناها أصحابها من أجل استقبال الزوار، فيقدّمون لهم الطعام والمنامة مجاناً. الا أن الكلام الأكثر تأثيرا في العقل والروح هو اقتراح بعض العراقيين بأن أترك مقر اقامتي وأن أحل ضيفا عزيزا في بيوتهم، وهي المرة الثانية التي أتلقى فيها هذه الدعوة من بعد السائق الذي أقلني من مطار بغداد، ما خلق في داخلي إحساس الانتماء الى هذا البلد وأهله..

بعد الشعور بالتعب من المشي، تجلس بالقرب من الطريق وتراقب مرور آلاف من البشر، فيأتي من يجلس إلى جانبك ويقدم لك الماء، يسألك من أنت ومن أين أتيت وكيف أساعدك، تجيبه بلكنتك اللبنانية فينهض متوسلا أن تقبل ضيافته، أما عندما يعرفك مسيحيا فيقبّلك على الرأس احتراما، ويبدأ بالحديث عن المسيح وعلاقته بالحسين وأن محبة العذراء مريم من محبة فاطمة الزهراء والسيدة زينب..
تلتفت الى زاوية أخرى من الطريق فتجد شبانا يغسلون ويدلّكون أقدام الزوار ، فتعود بالذاكرة الى كتابك المقدس (الانجيل)، حيث قام يسوع بغسل أرجل تلاميذه خلال العشاء الأخير، وقد انفرد إنجيل يوحنا بتفصيل ذلك الحدث، ويضيف على لسان يسوع، أن السبب الذي دفعه للقيام بغسل أرجلهم هو تقديم مثال بالتواضع وتبيان أهمية خدمة الآخرين والمساواة بين جميع الناس، وقد فسّر لهم ذلك بالقول: «ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله، فإن كنتم قد عرفتم هذا فطوبى لكم إذا عملتم به.»يو 13:17]. وهنا، على طريق المشايا تشعر بالفعل بمسيحيتك ويزداد إيمانك بعشق الحسين الذي خلق في شعبه كل هذا الحب والتواضع والإنسانية ..

دقائق معدودة ويأتي اليك الاصدقاء وهو يحملون في أيديهم أطعمة ومشروبات من كافة الاشكال والانواع، تأكل وتأكل وتطلب أكثر وكأنك تتناول القربان على مذبح الحب والحياة..

أتابع بعد كل ليل الكتابة، بأن طريق المشايا هو طريق الحق والنور، تشعر بأنه جسر العبور الى جنة الفردوس، ونفق النور يحتمل درجات مرتفعة من الحرارة، ولكنها تنخفض بغسل الرؤوس وكأنك تتعمّد بالروح القدس في نهر الاردن.. لم أر هذا

المشهد في مكان آخر، هو شيء غريب يصعب الحديث عنه.. وهو مرتبط بالدرجة الأولى بعشق الحسين والانتماء الى فكر قلّ نظيره في هذا العالم..

أعود للسؤال نفسه، لماذا يا صديقي كل هذا؟ أكل وشرب وغسل رؤوس وتدليك أقدام وترحيب ومسيرات وطقوس وشعائر صلاة وكلمات وأصوات تنشد ألحان الحزن والعشق والجنون بالامام الحسين؟
يجيبني أحد الاصدقاء بأن قصة الحسين تستحق كل هذا، وأنا أدعوك للمشاركة في مجالس العزاء التي تستذكر ما حلّ بالحسين، وبالفعل شاركت وسمعت وفهمت، ولكن الشعور الأقوى أني آمنت.. وبدأت أستجيب كمسيحي، لأصوات اللطميات، وأتفاعل مع الزوار بلطم الصدور والبكاء.

وهكذا مع مرور الوقت، وفي كل مساء بعد انتهاء أعمال المؤتمر، أعود إلى طريق المشايا لكي أكمل المسيرة "كنت أشعر بحماس الزوار وتفاعلهم رغم أنهم متعبين من السير لأيام، الا أنك تراهم في قمة الشجاعة والصبر والتحدي وأن هذا الطقس الجماعي الذي يشاركون فيه يعكس قوة وجودهم ويعزّز في أرواحهم عقيدة النضال للقاء الحسين وهو الشخصية الرمز التي لا تمحيها الأيام من ذاكرة كل مؤمن أو عاشق للحرية..

في وقفة تأمل أخرى على طريق المشايا، تجد السني والمسيحي الى جانب الشيعي رافعين الصليب في مواكب ملفتة للنظر، ولكنها في حقيقة ذاتها، تعكس وبقوة الفعل والحقيقة جانبا من تجليات عظمة شخصية الإمام الحسين بن علي ومقامه الرفيع، وموقعيته في الوجدان الشعبي المسلم/السني/ الشيعي والمسيحي.

فأنا المسيحي (الانساني) قد توافقت مع الاعلامية التونسية (السنية) (الانسانية) ريم الوريمي التي استضافتني في برنامجها على قناة الكفيل مرتين : بعد أن قالت لي"في كل زيارة للإمام الحسين أكتشف جزءا جديدا من شخصيته الاستثنائية، وأشعر هنا بارتياح شديد وكأن هناك قوة روحية تشدني الى هذا المكان.. وفي كل عام يزداد عشقي للإمام الحسين وأشعر بأنني قريبة من روحه ونهجه وفكره العظيم."
أجيب السيدة الوريمي وهي من الاعلاميات الأكثر شهرة في طرح المواضيع الدينية القيمية الجامعة والتي تحمل رسالة مصالحة ومصارحة للقاء الأديان والمذاهب باسم الحب والأخلاق والتضحية والإنسانية بأنني وخلال أيام معدودة استطعت ومن خلال مشاركتي الميدانية في طريق المشايا، أن أستلهم بالقول والفعل، ومن عيون الناس وأرواحهم وأعمالهم وضيافتهم وكرمهم ومحبتهم وتواضعهم، قيم العدل والإصلاح والحق، وقيم التضحية والبذل والإيثار والإخلاص والمسؤولية التي رسخها الامام الحسين فيهم.

وهذا بالطبع سيشجعني لقراءة سيرة الحسين بشغف لأنني أحببته في حب زواره اليه، وعرفت أنه ناضل واستشهد من أجل الانسان والعدالة والحق وليس من أجل مدينة ولا طائفة ولا مذهب.. وهذا ما يثير في عقلي كباحث أسئلة كثيرة عن طوباوية رجل قائد ملهم مرشد.. وأعود للكلام عن الروح التي تعلقت بروح قديس وفيلسوف ومعلم ومقاتل أبى أن تنكسر الكلمة لتكون البداية والنهاية لانتصار الحق على الباطل وانتصار النور على الظلام..
وهذا الكلام أثبته بالوقائع من أمام المواكب والمخيمات ومجالس العزاء والمضائف وكل ما شاهدته من شعائر تثبت بأن زيارة الأربعين تنبع من جاذبية الإمام الحسين المرتبطة أولا بقصته البطولية، وهنا أنحني أمام هذا القائد العظيم من أمتي الذي أربكني مشهد جمعه الملايين من البشر، وبقناعة وحماس وحب وشغف وفرح وحزن وكل المشاعر الانسانية الحقيقية، وفي وقت واحد ومكان واحد.
هذه بالنسبة لي قمة الروحانية وعمق الايمان، وكأننا أمام مقطوعة فلسفية مدرحية تمزج بين الروح والجسد، وبين الارض والسماء. شعرت هنا وانا القومي العلماني، بلذة العبادة، وحلاوة الإيمان، وتزكية النفس وتهذيبها.

أعود الى مقر اقامتي، عند الفجر تمامًا، أكتب بعض ما رأيت، وأقوم بالتحليل والتفسير بعد قراءة معمّقة لبعض المنشورات حول قصة الامام الحسين.. لأجد وأنا المسيحي المؤمن بعظمة السيد المسيح الذي صلب على يد اليهود لأنه قال كلمة الحق وقال انطقوا بالحق لان الحق يحرّركم.. كما وأنا المؤمن بفكر أنطون سعادة باعث النهضة السورية القومية الاجتماعية الذي استشهد واقفا برصاصات الغدر والخيانة من يهود الداخل والخارج في محاكمة صورية جائرة.. أصبحت أؤمن وبعد أن خضت تجربة زيارة الاربعين.. أن الامام الحسين قُتِل مظلوماً، وبصورة بشعة جداً، وعمد أعداؤه إلى تشويه أهدافه النهضوية، و"اتهموه مع أهل بيته وأصحابه بأنه من الخوارج"؛ لكن ما نراه اليوم في زيارة الأربعين أن الملايين من الناس تزحف نحو قبره الشريف، ليعلنوا أنهم مع الإمام الحسين في أهدافه وقيمه ومبادئه، وأنهم مع المظلوم ضد الظالم، ومع المقتول ضد القاتل، ومع الحق ضد الباطل، وهذا يعني أن الإمام الحسين هو المنتصر الحقيقي في معركة كربلاء. فالانتصار العظيم رأيته في عيون الاغنياء والفقراء كما في عيون المتعلمين والأميين، المثقفين وأبناء الجهل، الكبار والصغار.. كل هؤلاء كانوا يخدمون ويتوسّلون تقديم الخدمة في سبيل الحسين.. فهل أعظم من هذه الأعمال في حياة البشر..

وهذا ما أكد لي بالفعل، ما سمعت وما قرأت، "بأن ظاهرة الزيارة المليونية في زيارة الاربعين للإمام الحسين تعبر عن انتصار القيم والمبادئ والأهداف التي استشهد من أجلها الإمام الحسين في معركة كربلاء؛ كما تؤكد على أن الانتصار المادي الذي حدث

في كربلاء للجيش الأموي كان مؤقتاً وزائلاً، بينما انتصار القيم والمبادئ مستمر وثابت، وهذا ما أكدته أحداث كربلاء وما حدث بعدها؛ وهذا هو الانتصار الحقيقي.."

في الأيام الاخيرة لزيارتي، وبعد إنجاز أعمال المؤتمر في الجامعات التي قمنا بزيارتها، بقيت الملحمة الحسينية بالنسبة لي تتجسد في أجلى صورها في طريق المشايا؛ حتى لحظة وصولي الى قبر الإمام الحسين، ومشاركتي الى جانب الملايين من الزوار، هذا الحب والعشق لرجل ضحى في سبيل الحق. فأمام المرقد رسمت في ذاكرتي لوحة عشق ملونة بالدموع والدماء، وصرخات أرواح تطلب الرحيل للقاء روح الحسين، وتبقى تلك اللمسة التي أخذتها بالقوة من المرقد قوة لا تزعزعها قوى الشر مهما حاولت تكفيري. ويكفيني أنني خضت تجربة صراع الأكتاف في الأرض لكي تطال اليد السماء..

أعود لأكتب مذكراتي، وأشعر بالفخر، بأنني مشيت كما على درب الصليب، على طريق المشايا، ولم تمنعني حرارة الشمس، ولا سوء الطقس، ولا الخوف الذي زرع في رأسي قبل قدومي الى العراق عن الإرهاب والتفجيرات والاحداث الامنية التي قد تحصل بين لحظة وأخرى، بل تحدّيت كل المخاطر والمصاعب بإرادة وعزيمة لا تلين نحو زيارة الإمام الحسين، وإحياء مناسبة الأربعينية الى جانب أخوتي في العتبة الحسينية والعباسية بأجمل صورة عرفتها الإنسانية .

هنا في طريق المشايا هناك نبضة في قلبي أشعر بها تلامس كل القلوب المؤمنة بعقيدة الحياة.. وهذه الكلمات التي أكتبها في زيارة الاربعين لن تموت وهي تلامس ذكرى لا تنسى.. لا أتألم الآن بل هي دموع الفرح على تجربة علمتني الكثير، وهي دموع تساوي بالنسبة لي عمرا من الضياع في جهل ثقافة أهل البيت.
أما تلك النظرة التي تقتحم وجهي من عيون أصدقاء رافقوني في زيارتي، فهي نظرة تختصر الكثير بالنسبة لي، فأنا لم أر الا الحب والاحترام وكرم الضيافة.
هنا في مدينة كربلاء تبقى الروح في حضرة الحسين ولا تغادر مهما ابتعدت في الجسد، وملايين الزوار لا أودعهم مهما أبعدتني المسافات عنهم....

يتبع.. ليلة واحدة في بغداد..